البوسنة وكوسوفو: المعرفة والوعي والحقيقة*

ف.توخمان، تيم خودة، كارلا دل بونتي

إنّ ما يجمع البلدان التي لا تأبهُ لمسائل حقوق الإنسان، والأُخرى التي تأْبَهُ لذلك، هي رغبةُ الطرفين أن لا يُدان مجرموهُما! وعندما يأتي أوانُ المحاسبة؛ فإنّ أولئك الذين يسعَون بالفعل لإحقاق الحقّ والعدالة نادرون جداً، وبخاصةٍ إذا كان الضحايا من أُمَمٍ أو دياناتٍ أُخرى. وحتى القادة الدوليون الذين لهم مصلحةٌ بالاهتمام بالرأي العامّ العالمي والسُمْعة الحَسَنة، يظلُّون شديدي التردُّد، رغم ادّعاء العكس. وذلك لأنّ المصالح السياسية، كما في حالة يوغوسلافيا، تتقدم لديهم على اعتبارات العدالة. وبالإضافة لذلك، هناك »قانون« غير مكتوب، مفادُهُ أنّ الجرائم التي يرتكبُها أميركيون وآخرون من الدول الغربية، تبقى بدون عقاب. فعندما بدأت المحكمة الجنائية الدولية عام 2003م رفضت إدارةُ بوش الانضمام إلى اتفاقيتها بحجة أنّ مواطنيها يمكن أن يخضعوا في المحاكمة أمام المحكمة الجنائية الدولية إلى اتهامات مدعين عامين أجانب! لكنّ ذلك كان مبرراً خادعاً. أما السببُ الحقيقي فهو اعتقاد النخبة الأميركية أنّ التفوق الأخلاقي لأميركا ينبغي أن يضعها فوق المقاييس الإنسانية الأُخرى. والمشكلة في هذا الاعتقاد أنَّ كلَّ أحدٍ يظنُّ نفسَه كذلك. ولذا فهناك اعتقادٌ ثابتٌ لدى معظم الناس أنهم يستطيعون ارتكاب جرائم والنجاة من العقاب.

(*) مراجعة لثلاثة كتب عن البوسنة وكوسوفا، ومذكرات المدعية العامة بمحكمة لاهاي، كتبها Charles Simic ونُشرت في New York Review of Books, March 2009, LVI, Nu.5, PP.23-26.

ومن جهةٍ ثانيةٍ لا يأبهُ مواطنو أي دولةٍ كثيراً لما ترتكبُهُ دولتُهُم تُجاه الآخرين. وليس هناك مجتمعٌ يستطيع احتمال فكرة أنّ جرائم تُرتكَبُ باسمه، ولذلك تتكاثر المعاذير بهذا

الشأن. ثم إنّ تبرير الجرائم الحربية التي ارتكبها ابنُ إحدى القوميات، يعتبره البعضُ واجباً قومياً لا تجوزُ خيانتُه. وقد طالبت عواميد الرأي في عدة صُحُف الرئيس بوش بأن يُصدر قبل ذهابه عفواً عن المستشارين القانونيين الذين سوَّغوا التعذيب، والآخرين الذين نفَّذوهُ حتى لا يتعرضوا للمُلاحقة. وسببُ ذلك– فيما قالت التعليقات – إنّ هؤلاء إنما ارتكبوا هذه »الأخطاء« من أجل الحفاظ على أمن المواطنين الأميركيين! ويُصرُّ المنظِّرون القوميون في كلِّ مكانٍ على أنّ أبناء قوميتهم يحتلُّون مكانةً متفوقةً من الناحية الأخلاقية، بحيث لا تسْري عليهم قوانين الخارج. فهم الأبرياء والمتفوقون حتى لو كانوا يقتلون النساء والأطفال. وكُلُّ مَنْ لا يمشي بهذه الطر يقة – في نظر هؤلاء– إنما هو كارهٌ لنفسه أو خائنٌ لبني قومه!

إنّ الكتب التي نراجعُها في هذا السياق، تدرس الوضع اليوغوسلافي إبّان انهيار الاتحاد، وهي حَريةٌ أن تُغضِبَ الاعتذاريين من كلّ جانب. فالصرب والكرواتيون والكوسوفيون، يصرُّ كلٌّ منهم على نزاهته، وعلى أنّ الآخَر هو المتَسَبِّب. وفي أكثر الأوقات يفضّلون البقاء صامتين. وعندما قرأتُ كتاب تيم جوده عن تاريخ الألبان والبلقان، اشتدّ بي الرعب لقسوة الحروب التي خيضت في القرنين الماضيين، وكان جَدّي أحد المقاتلين في بعضها. وما أخبرني أحدٌ بما فعله جَدي، بل كان بطلاً عند الجميع، وحصل على ميداليات. والله أعلم بما فعله في حروب الترك والألبان، والتي ما تكلم عنها أبداً. وقد كنتُ أعتقد أن عسسكريي القرن الماضي كانوا أنبل من عسكر اليوم، لكنني بعد قراءة كتاب جوده ما عُدْتُ متأكِّداً.

وسمّتْ ف. توخمان كتابها عن نساء البوسنة المسلمات: »كأنما يأكل الإنسانُ حَجَراً«. وقد كنّ حتى العام 2003م، أي بعد ثماني سنوات على نهاية حرب البوسنة، ما يَزَلْنَ يبحثْن في القبور الجماعية عن عظام أولادهنّ وأزواجهنّ. هذا الكتاب المترجم عن البولندية، يتكون من فصل قصيرة صادعة. ويبدأ كُلُّ فصلٍ بمقدمة قصيرة عن القرية أو الناحية وماذا حدث فيها، ثم يترك لإحدى النساء أن تَقُصَّ بأُسلوبها ما شاهدت أو ما عاشت. ففي العام 1992م وجدت نساءٌ كثيراتٌ بالبوسنة أَنْفُسَهُنَّ مصعوقات مما بدأ

يجري لديهنّ ومن حولهنّ. فرفاقُهُمْ الصربيون، الذين كانوا يعرفونهم من المدرسة أو المصنع أو الجامعة، كانوا يمضون من بيتٍ إلى بيتٍ، فَيُخْرجون الناس مطرودين، ويقتلون بعضَهم أمام أَعْيُنِ ذويهم وأطفالهم. وخلال ذلك يَسْلُبُونهم ملابسهم وجوائج منازلهم وعرباتهم وجواهرهم، وكلّ ذي قيمةٍ لديهم. وأقاموا معسكرات احتجزوا فيها أولئك الذين اعتبروهم أغنياء، أو الذين »ارتكبوا« أعمالاً ضد الصرب. والمعتقلون كانوا يُعذَّبون من جانب العسكر، لكنْ أيضاً من جانب المدنيين الصرْب الذين كانوا يستطيعون دخول المعسكر وفعل ما يشاءون معهم أو معهنّ. كان بعضُهم يأتي ليلاً ويأخذ النسْوة للاغتصاب. وكثيراً ما أحرقوا المساجد والقرى. وازدادوا غَضَباً عندما حمل المسلمون السلاح لمقاومتهم. وقد فعلوا ذلك وهم واثقون أنَّ أحداً لن يُحاسِبَهُمْ. وذلك كلُّه حدث خلال شهرين أو ثلاثة، من بدء المشكلة. ونحن نعرف اليوم أنها كانت خطةً لفصل الصرب عن البوسنيين إلى الأبد، وموجَّهة من بلغراد والبوسنة من جانب القوميين المتشددين لكنني ما أزال متعجباً لماذا شارك القرويون والمدينيون الصرب في ذلك ضد أصدقاءئهم وجيرانهم. فالذي يبدو أنّ صربَ الضعيف وتعذيبه أَمْرٌ شديدٌ الإغراء، وبعد ذلك يستغرب القاتل لماذا يُعتبر مسؤولاً! والمُلاحَظُ لدى المقابلات مع الصرب أنّ النساء هنّ اللواتي يُبادرْن للشكوى، ويبقى الرجال في المؤخّرة صامتين خوفاً من أن يعرفَهُم أحدٌ فيخبر بهم اللجنة الدولية، لكنّ الجميع مصرُّون على الأكذوبة القائلة أنّ الضحايا كانوا في الغالب منهم.

أما الكتابُ الثالث فهو لكارلا دل بونتي، وهي المدعية العامّة في قضايا يوغوسلافيا (1999–2007م)، والمدعية العامة من قبل في مذابح راوندا (1999–2003م). وقصتُها قصةُ ذكرياتٍ ومذكّرات واعتقالات في صفوف الصرب والكرواتيين والبوسنيين المتهمين بجرائم حرب، وبين هؤلاء الرئيس الصربي السابق سلوبودان ميلوسفتش. وكارلا دل بونتي قويةٌ وصارمةٌ ومكروهةٌ من جانب المتهمين، ومن جانب بعض رفاقها أيضاً! وقد أجْرت تحقيقاتها في أماكن الجرائم وفي لاهاي وحتى في وشنطن عندما طلبت من مدير المخابرات الأميركية جورج تنيت أن يُساعِدَها أكثر في القبض على رادوفان

كراجيتش وراتكو ملاديتش! وترى دل بونتي أنّ يوغوسلافيا دُمِّرت في التسعينات على أيدي قِلّةٍ من الرجال والنساء، وبعضُ هؤلاء من الشيوعيين السابقين الذين كانوا على استعداد لإثارة مواطنيهم من أجل ارتكاب الجرائم. ولا شكّ أنّ القادة السياسيين بالبلقان، ليسوا وحيدين في استخدامهم التعصب القومي لتحقيق أهداف سياسية. بيد أنّ ما ارتكبه ميلوسيفيش كان مخيفاً بشكل خاص. فقد أرسل عصاباتٍ مسلَّحةً إلى المناطق المختلطة لارتكاب جرائم كفيلة بإزالة البوسنيين والكرواتيين من الوجود او إرغامهم على الهرب والهجرة لتبقى المناطق صربيةً خالصة. وكانت الصعوبة التي لقيتها دل بونتي أنها ما كانت قادرةً على إصدار أوامر القبض بدون الحصول على شهادات كثيرة مكتوبة ووثائق ومن الدول التي ما كانت هي بالذات تريد ان يُعاقَب المجرمون. وما كان لدى المدعي العام بوليس يستطيع الملاحقة والاعتقال، كما أنه لم يكن قادراً على لوم الحكومات التي لا تتعاون. أما الرئيس الكرواتي توجمان فقد قال وهو على فراش الموت إنّ الذين جلبوا الحرية لكرواتيا ينبغي أن لا يُعاقَبوا مهما صدرت في حقّهم من أحكام. فما دامت كرواتيا محتاجةً للحرية والأرض، فإنّ ذلك يتطلب رجالاً أقوياء ولا بأسَ إن قتلوا بعض المدنيين. وكذلك قال رئيس صربيا كوستونيتسا أثناء تحقيقات دل بونتي فرأْيُهُ أنه ما حصلت مذابح، وما مات أحدٌ من البوسنيين أو الكروات! وتقول دل بونتي إنّ الكروات فقدوا حوالي الـ 15 ألف قتيل عام 1991م. أما البوسنيون ففقدوا 103 آلاف، و55 ألفاً من بينهم مدنيون. وفي نزاع كوسوفا عام 1999م فقد الكوسوفيون حوالي الـ 12 ألفاً والصرب هناك حوالي الـ 3 آلاف. أما السياسي الصربي الوحيد الذي تعاون مع المحكمة فهو رئيس الوزراء زوران جينتش، وهو الذي اعتقل مليوسفيتش وأرسله للمحكمة. وقد ضحّى من أجل ذلك بحياته! وحتّى الأمين العام للأُمم المتحدة كوفي أنان طلب من دل بونتي أن لا يظلّ يُلحّ على العالم بعدم مساعدة صربيا إن لم تُسلِّم مجرميها! وقد كان تسليم ميلوسيفيتش نجاح دل بونتي الأكبر، لكنها استطاعت أيضاً محاكمة حوالي المائتين من سائر الأطراف. وقد عملت دل بونتي في محكمة روندا

أيضاً. وفي تلك الجرائم المخيفة وقائع هائلة وتفوق الوصف. لكنْ هناك لا حيرة في التكييف. فكل الذين ماتوا ماتوا لأنهم من إحدى القبيلتين أو القبائل المتنازَعة.